الدمع الحلال

قصة قصيرة مستوحاة من إحدى

حلقات برنامج "جبر الخواطر"

محمد عمر المصري

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الدمع الحلال

قصة قصيرة مستوحاة من إحدى حلقات برنامج "جبر الخواطر"

تأليف

محمد عمر المصري

عندما تتبدل المعايير،
ستجد أحدهم يتعجب
من كل فعل جميل،
ويظنه شاذا عن قواعد
الحياة الآسنة، بينما لا
يُعير لأمر المنكر بالا!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الهدف

في ضحى ذلك اليوم الضحوك المشمس، ترصد كاميرا برنامج "جبر الخواطر" أحدَ العابرين بسلامٍ في طريق الحياة الممتد، حاملًا بيده قفصًا من جريد يابس، ليس له هدف آخر في تلك اللحظات سوى الحصول على وجبة إفطار يسد بها رمق من يعول!

أهدافه كثيرة كسائر البشر، لكنها ليست مشتتة، ربما أدرك أن الأهداف المشتتة لا تصنع شئيا، ولا يتمهد لها طريق لتعبر وتتم! فهي كالوميض الدوَّار أعلى قمة منارة يُرى عن بُعد، لتهتدي به سفنٌ لاهثة تمخر عباب[1] البحر، لكنه لا يضيء أسفل المنارة.

ترتسم على وجهه نبرات السعادة، ناطقة بلسان الحال الهادئ البشوش؛ بأن الحياة يجب أن تحياها كما هي، لا تزيد عنها، ولا تنقص! فمن أسباب الراحة فيها أن تعرف كنهها، فلا تزيد عليه فلسفة وديباجة، ولا تنقص منه زهدا وتقشفا!

وهي في حقيقتها جمالٌ على جمال، لمن وقف عند حدها، واستبان مناكبها، واستقرت عينه على هدف لا يحيد مسلكه، ولا ينبري بين مطامعها فيبهت ويزول!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فالعين الزائغة لا ترى جمالًا فيما تملك!

ملك الرجلُ الأرض بحذافيرها، عندما اتسع نظره وحدَّ[٢]، ليرى ملكوت الرب تتجلى أمام ناظريه، فلا يملك إلاّ أن يسبّح بالحمد، ويحيا بالشكر!

فقد بدا أنه أصبح آمنا في سربه المتواضع في عين من لا يجيد التمييز بين الأشياء، ولا يدرك حقائق المآلات، ولا يضع أمور الحياة في نصابها الصحيح.

وبدا متعافيا في بدنه، فلا يرى لأواء[٣] الدنيا ومضارها سوى ابتلاء يسأل ربه الصبر عليه.

وما قوت يومه إلَّا بالحد الذي يسد رمقه، ويمنع تخمة بطنه!

- وما يمنع أن يكون له أهداف غنى وتطلعات ثراء يا سيدي، أكلُّ الساعون نحو الثراء متهمون في ذممهم ومصادر دخلهم؟ (لسان حال المذيع يتأول ذلك).

- ومتى كان التطلع لأسباب الغنى والثراء اتهامٌ يا عزيزي؟!

إنما عين التهمة أن تتلبد[٤] النفس على أتون الصراع[٥] بين تطلعاتها ورغباتها، وبين إمكانياتها ومراد ربك فيها! فلا هي قادرة أن تتلمس إحدى هاتين؛ التطلعات ومراد الله، إلَّا بشق الأنفس، وبالضغط

على إحداها تجاهلًا، كي تجنى الأخرى! فإن فازت بمراد الرب، فتلك عاقبة كبرى تهون دونها كل المطامع، وإن أهملتها، فهي وشأنها، بله قدرها؛ يأتيها الرزق متسعًا كان أو مقدورًا[٦]، فعند الاتساع فسحة من الزهو تنسي النفس فضل المنعم، وعند الافتقار غمة من الهم تنسيها نعما كثيرة.

- ربما أكون عبدًا غنيًا شكورا!

- نعم، وهذا هدف سامٍ، يقلع بك من براثن الجهل بالخالق، ومعاطن الفقر القابع على نفسك وبدنك، إلى متسع من الفكر يرقى بك إلى مدارج الشكر والحمد، وأداء الحق الواجب فيما تملك!

لكن الطامة الكبرى أن لا ينفعل في نفسك داعي الغنى مع داعي الشكر، فلا يتسع قلبك للتفكير في دواعي الثراء، والتفكر في عظمة الخالق! فترى قلبك ينهض ساعةً بالذكر والرجاء، وأخرى بالحرص والطمع في فرصة رزق جديد.

والطامة الأخرى أن يتسلل إلى نفسك دواعي التفكير الجيد والتخطيط المنظم وإدارة الأعمال بحنكة رجل الأعمال الطموح، فينسيك جهد تفكيرك فضل تدبير ربك! فتغتني ماديًا، ويزداد مؤشر الثراء بلوحة حياتك، بينما ينحدر مؤشر الرضا شيئًا فشيئا حتى تجده تحت الصفر بدرجات سالبة!

غير أنه من البدهي أن يجتمع الغنى والشكر في قلبٍ متزنٍ بالأساس! فشكر النعم مما يزيدها ويباركها، يقول المولى عز وجل: "لَئِن شَكَرْتمْ لَأَزِيدَنَّكمْ"[٧]، فالقلب الذي يقبل على الحياة الدنيا ويتخذها سلمًا للصعود إلى الحياة الآخرة، لا ينسى حظه من تلك، ولا يتغافل عن هدفه للأخرى التي هي خيرٌ وأبقى!

وإني لمخبرك بمقولة عمرو بن السكن قال[٨]: (كنت عند سفيان بن عيينة، فقام إليه رجل من أهل بغداد؛ فقال: يا أبا محمد، أخبرني عن قول مطرف: لأن أعافى فأشكر أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، أهو أحب إليك، أم قول أخيه أبي العلاء: اللهم رضيت لنفسي ما رضيت لي؟

قال: فسكت سكتة ثم قال: قول مطرف أحب إلي.

فقال الرجل: كيف وقد رضي هذا لنفسه ما رضيه الله له؟

قال سفيان: إني قرأت القرآن، فوجدت صفة سليمان مع العافية التي كان فيها: "نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"، ووجدت صفة أيوب مع البلاء الذي كان فيه: "نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"، فاستوت الصفتان، وهذا معافى، وهذا مبتلى؛ فوجدت الشكر قد قام مقام الصبر، فلما اعتدلا كانت العافية مع الشكر أحب إلي من البلاء مع الصبر).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإذا نظرت، فإن ما يغنيك عن سؤال البشر هو عين الثراء الذي أنت غافل عنه، فالثراء الحقيقي يا عزيزي أن يغنيك الله عما في أيدي الناس، وترضى بما قسمه الله لك، مع سعيك الدؤوب لنيل الأرزاق المقسمة لك.

أمطرت السماء ذات يوم، فجهز الناس أوانيهم ليملئوها بماء المطر، فمنهم من خرج بآنيته حتى امتلأت، ورجع يأخذ أخرى فارغة ليملئها ويضعها بجوار الأخرى، حتى إذا امتلأت كل الأواني لديه، سارع لمساعدة الناس بملأ ما تبقى من أوانيهم بأجر أو مروءة، إلى أن انقطع المطر عن شفق الشمس الأحمر القاتم المتلون باصفرار أشعتها، وقد أنهك صاحبنا التعب، فأرخى عليه الليل سدوله، وتلفع[٩] بعنائه وكده[١٠]، وارتمى هامدًا لا يلوي على جنب!

وآخر خرج بآنيته حتى امتلأت، ورجع شاكرا لا يفتر[١١] لسانه عن الذكر، ليأخذ أخرى فارغة ليملئها ويضعها بجوار الأخرى، حتى إذا تذكر صلاة الضحى استراح بها، وهمَّ نشطًا يمتطي سعيه، حتى إذا سمع نداء الظهر نشط للصلاة بسوابقها وملحقاتها، حتى إذا امتلأت كل الأواني لديه سارع لمساعدة الناس بملأ ما تبقى من أوانيهم بأجر أو مروءة، فلما سمع صوت العصر، سارع للصلاة، وعاود فعله إلى أن انقطع المطر عن شفق الشمس الأحمر القاتم المتلون باصفرار أشعتها، ولم ينسه التعب أذكار المساء وصلاة المغرب، وصلاة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

العشاء، فتلفع بذكر الله، ونشط بدنه بالصلاة، فنام من الليل، وقام بعض أوقاته!

- أراك تتحدث بمثالية، وتبعد النُجْعة[١٢] عن واقع الناس! إننا نعيش في دوامة من المشاغل والمشكلات التي تتجدد فينا كدفقات القلب وأنفاس الحياة، والأهداف تولد أهدافا، ولا تدع فسحة من الأمر لذي عقل أن يتبين صواب الهدف من خطئه!

وتلك أيام دحسٌ ودعسٌ[١٣] يا سيدي، إما أن تدهس بقدميك غوائل[١٤] ظروفك، أو تدهسك ظروف الغير من دون مبالاة!

وصِفْ لي أي عقل تراه يتمهل فيتخذ قرارا بتُؤدة[١٥] وكل المسارات حوله تسير بسرعة الصاروخ! وهمه أن يساير ظروف الحياة، أو يعيش بمعزل في طرفٍ خفي في كوخ الحياة المظلم على شاطئ الوادي الأبعد!

- لا مندوحة عن الحديث بمثالية في عالم الواقع الرديء!

كيف لي يا عزيزي أن أسري عنك بشواهد بين يديك، تراها وتعاينها، ربما غَفَلتْ عنها عيناك، لكنها حولك على كل حال! لا تستوي معرفتنا بتمييز الشجرة الثمراء عن الحجر الصلد عيانًا، سوى بإدراكنا بفوارق التمييز بينهما.

إننا أحوج ما نكون إلى الوقوف على تمييز الأشياء بصورة تدعو للتأمل المتدفق بمعانٍ كبيرة، لعل أهمها معنى الوجود! ففي البساتين

المتجاورة أنواع شتى من الأشجار، تنمو في تراب واحد، وتسقى بماءٍ واحد، ومع ذلك تختلف في الطعم والمذاق، "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[١٦].

ألا يدعو ذلك إلى التفكر في مناحٍ أخرى تنفذ بنا عبر تراكمات الفكر المشرد، والذهن المشتت، فنرتقى إلى مجالات أرحب فكرًا وأهدأ معتركا!

بيد أن العالم المثالي الذي تظن أني أستجلبه إليك أو أجلبك إليه، ما هو في حقيقة الأمر سوى عالم الواقع المتماهي مع طبيعة النفس السوية، فهل يُعد الصدق في مجتمع التملق والكذب حالة مثالية؟!

كلا، إن الكذب هو حالة الشذوذ عن مسار المجتمع السوي، فما طفحت ثآليل[١٧] النكد على جسد المجتمع العاري من القيم والأخلاقيات إلا بنداءات شياطين الأنس والجن في الناس ليل نهار أن الدنيا متسع جيد للهو والترفيه، فشدوا رحال المتعة إليها!

وتلك نداءات شيطانية لاقت آذانًا مفتحة وضمائر ساذجة، علا صفحة الجمال بها مطويات كثيرة من الفراغ والدعة، فأبت إلا سبيل اللهو، وأبعدت الانصات عن كل نصيحة!

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبنوا النصح إلا ضحى الغد

وكذلك هي الأنفس الكادحة بمنعرج الحياة الصاخب، لا يتضح لها الأمر إلا بعد فوات أوانه!

ومن السذاجة أن تقحم نفسك بأمر لست تدري سبيل النجاة منه، وأن تتوهم أن الفضيلة أضحت أمرًا مثاليًا في مجتمع الناس الواقعي والافتراضي!

وإن لم يتلبس واقع الناس بقيم الأخلاق وسرابيل الفضائل، فلا سبيل للعيش سوى بسلبه من الضعفاء ببطشٍ وظلم، واستجداءه من الأقوياء برعونةٍ وخبث.

ومتى خلع واقعُ الناس عنه رداء العفة وحجاب القناعة، فإن بواعث الفوضى الحيوانية ستؤتي ثمارها المرة الخبيثة.

لا يعدو الأمر الواقعي سوى بيئة ممهدة لنداءات الفطرة الإنسانية، وأي انتكاسة فيها تستوجب عمل الحياء الذي هو من مفضيات الحياة ولوازمها! حتى إذا أبانت الحياة عن سوأتها، لزم سترها ببواعث الحياء. "فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ"[١٨].

ويتبين لك الأمر أكثر تجليًا وأولى حمدًا، بأن في الجنة ساعتها، مما يُستعمل خصفًا لستر السوأة، وإلَّا ما العمل إن لم نجد في دنيانا ما نخصفُ به سوأة أفعالنا!

ليس لنا سوى رحمة الله.. أليس كذلك!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

"وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ"[١٩].

نعم، هي خير من دوامة المشاغل والمشكلات التي يدور الناس في ركابها، فلا يهنئون بمحصول إلَّا أصابهم غم الفقد والطمع!

تعبٌ كلها الحياة فما أعجبُ.. إلا براغبٍ في ازدياد

وهل يتدلي الناس في دوامة المشاغل إلا بمحض إرادتهم! فلا قناعة تغنيهم عن تعب الأبدان، ولا رضا يستميل هواهم نحو هدوء النفس وكبح جماحها! فمن انطلق من قاع الفقر ليتسلق جبل الطمع الأصم، لا يرضيه بحالٍ أن يحيا بما لديه من إمكانيات وماديات، ودائما ما تذكره نفسه بليالى الفقر البالية، وأنه كان يبتاع[٢٠] الفقر في زنيبل[٢١] قديم!

والمتشاغل بالدنيا لا هدف مستقر لديه، فإن أغراه هدف وبلغه، استهواه آخر وتبعه! وهكذا هو في حراك دائم، وشغل شاغل، ينسيه روحانيات نفسه، وأحضان الدفء بين أهله وذويه! طبعت عليه تلك الحياة مادة رخامية صلدة، لا يستقر عليها ماء، ولا ينبت بها نبات، تتكسر على سطحها قلوب المقربين، فكيف بالغرباء والمتوددين!

يالها من نفس خلعت عنها صفة الإنسانية، ودارت في فلك المشاغل حتى نست ذاتها، فجلبت لدنيا الناس همومًا ثقالا، وكفى بوجودها هم! يحسبون ذوي العفاف والاستغناء من الأغنياء الميسورين! فلا يدققون في علامات التعفف الموسوم بها وجههم المليح!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولا غرو أن هؤلاء المتعففين لديهم من المشاغل ما يرهق البال، لكنهم في كل حين يرتدون ثوب العفة والرضا، وإن ناموا طاويي البطون، ناموا هادييء البال، وإن ظهر لهم همٌ فلا يمتد نطاقه إلا لتلبية حاجيات بسيطة من طعام يسد الرمق، ومال يُشهر في وجه الفاقة العمياء!

ويالها من سعادة بالغة في نفوس هؤلاء، إذ يؤثر الآباء الأبناء على أنفسهم، فيتقاسمون بينهم الطعام، فتنشغل الأم عن تناول منابها، وتقسمه على أطفالها، وتحرم نفسها من لذة الأكل، لكنها أشبعتها سعادة العطاء والحنان!

هكذا الأب يفعل، تتورم قدماه سعيًا وراء الرزق، ويكلُّ بدنه، وتثخنه جراح الأيام، وتصيبه سهام نكدها فيتحامل مبديا السرور، حتى لا يغتم لحاله من يعول!

يالها من أيام قاسية!

آه لو كان لها قلب رحيم، لارتقى بهؤلاء المتعففين إلى عنان السماء، ولأخذهم حيث مواضع النجوم، وأطلق عليهم في ساحات الطهر والعفاف والنقاء مسمى "النجم المتعفف الكريم"!

أمثل هذا الرجل المتعفف ينام على الحصير، مكملا عشاءه نوما!

أمثله يرتدي الثياب البالية، وينتعل نعالا أنهكها المسير في دروب الحياة المتعثرة!

أمثل تلك الأم المتعففة لا تملك من حطام الدنيا سوى السعادة التي تتبدى لها من نظرات أولادها ورضا زوجها!

آه لو تسمع ندائي حوادث الأيام، لصرختُ في صروفها وأزمنتها؛ أيتها الشتاء الباردة، لا تنفثي سمومك القارصة على هؤلاء، فأجسادهم رقيقة كأفئدتهم، وليس لهم غطاء سوى غطاء الستر، فاصرفي أنفاسك عنهم، وامنحيهم شعاعا من الدفء في ليلهم البائس الطويل!

أيها الصيف القائظ، رحماك فابعث نسائم هواك العليل ترطب أكباد من أعياهم التعب والارهاق في سبيل لقمة عيش حلال تمنعهم سؤال الناس!

أيها الناس، أناشدكم الله والرحم في هؤلاء، ستجدون دمعًا دافئا، لا يضر نعومة أيديكم إن مسحتموه، ستجدون شعرًا ناعما، لا يضر باطن أيديكم إن مسحتم عليه، ستجدون جلدًا لينا لا يضر أكفكم إن صافحتموه، ستجدون أعينًا لطيفة راضية، ووجوه تملؤها السماحة والملاحة إن نظرتم إليها!

انظروا إليهم بعينٍ بصيرة وقلبٍ كريم، فكم ممن لا تعلمون يضربهم الجوع بسهمٍ قاتل، لكنهم يتعففون السؤال!

وكم ممن لا تعلمون لا يملكون ثمن دواء لمرضٍ يكاد يفتك بهم!

وكم ممن لا تعلمون ليس لديهم من سبل إسعاد أبناءهم سوى التسلي بالحكايات القديمة، ولهو الأطفال فوق ظهورهم وأكتفاهم!

هؤلاء البائسون لم تدع لهم عضةُ الفقر فسحة لأن تتشتت لديهم الأهداف، فهم يعالجون فقرهم بكدٍ ظاهر على محياهم، دون أن يسألوا الناس إلحافا، ولا يلح حالهم فيستعطف هذا وذاك ممن تشتت لديهم الأهداف، فأضحوا يقتفون أثر الهدف بلا تمييز بين خطأ وصواب!

ومن أسوأ حالًا ممن تفرعت أهدافه دون ثمار، بين مكابدة طمع النفس وشهواتها، وتروس الحياة وأنظمتها وقوانينها! فيحتال للربح بأي طريق، وغايته الجامحة تبرر كل وسيلة!

ليس لصاحب الأهداف المشتتة متسعٌ من الفكر لتمييز صواب الهدف من خطئه، طالما أن مجتمع الشره[٢٢] ينحني إليه تعظيمًا وإجلالا!

نعوذ بالله من ضلال السعي وتشتت الأمر!

فالمسارات، على حد قولك يا عزيزي، تسير حولنا بسرعة الصاروخ، ومن يتأن في المسير ربما أصابه سهم التأخير والتخلف، ومن سارع الخطى ربما أصابه سهم الطمع والجشع! والسلامة في وزن الأمور بميزان الشرع، لا بميزان العالم الافتراضي السائر نحو هاوية الميتافيرس بسفورها وجنوحها وخلاعتها وغشمها!

وأنى لمتعفف أن يوجه أنظاره، والعالم حوله يتدثر بلباس الفجور القمئ! لا هم فيه لأصحاب الشجع سوى إشباع البطون والفروج، يحسبون مَن دونهم أحياء على هامش الحياة، يقتاتون من فتات ما تجود به فوائض موائدهم، وحقير صدقاتهم.

لكن حسب هؤلاء المتعففين وجه السماء.

فتقلب الأنظار فيه به البهجة الكبرى!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العابرون بسلام

حيا المذيع ذلك الوجه الراضي المقبل عليه مبتسم الجبين منشرح الصدر، يمشى الهوينا قاصدا شراء وجبة إفطار وخبز يضعه فوق قفص الجريد الذي يحمله، وليس في جيبه سوى تلك الخمس جنيهات التي يضرب بها عين الحرام، ويوحي إليه أنه مكتفي بها عما سواها مما جُلب بطرق مشبوهة!

سأله المذيع عن اسمه، قال: عبد العظيم!

عن عمره: سبعة وستون.

عن وجهته: ذاهب لشراء خبز وفطور.

كاد الرجل أن يميل عنه، فلا يقف لحوار يشغله عما يذهب إليه، ولسان حاله يقول: دعني أمر بسلام!

- ولمَ أيها القلب الطيب! دعنا نستجلب بُنيات[٢٣] روحك الجميلة، لعلها تنشر أريج العطر على واقع الحياة الثقيل!

- دعني يا ولدي، فليس لي مطمع ظهور على شاشاتكم، وليس لي بكم حاجة وأنا الغني عن سؤالكم! دعني وشأني!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

- تمهل لحظة أيها القلب الطيب، كل ما نطلبه منك أن تجيب عن سؤال بسيط لعلك تربح جائزة البرنامج!

-وهل مثلي يستوقفون ليربحوا جوائز يا ولدي؟

أنا القابع في كوخ الحياة الأبعد، هانئ البال، سعيد المآل، ليس لدي ما أسديه لأحد سوى قلبٌ كبير مملوء بالود والمحبة، صادق في مشاعره، متمنيا الخير للجميع.

نحن يا ولدي أصدق الناس مشاعرًا، فليس لدينا من إغراءات سوى تلك النبضات الخافقة بين صدورنا! وليت الناس تفهم صدق المشاعر بدلا من الإغترار بزيف المظاهر، على أننا ننخدع بجميل القول، وبهرجة الوجوه التي تميل إلينا بمعروف، ولا تعرف أننا نكافئها بأن نميل عنها بالكف عن استقصاء نواياها، أو تملس صدق مشاعرها، فأنى لمعتر[٢٤] أن يبحث في مكنونات نفوس الناس، وهو يستنكف أن يسألهم ما بأيديهم، وحاجته لمادياتهم أولى من حاجته لمشاعرهم وأحاسيسهم!

يُبدي الرجل ابتسامة صافية تتلألأ معها أسنانه البيضاء المصقولة، طالبا من المذيع أن يدعه يمر لحال سبيله، فعنده من المهام الضرورية ما يشغله عن إضاعة الوقت أمام الكاميرات.

وما مهامه سوى أعمال ضئيلة في ملف الحياة المتثاقل بالأعباء والمهام الكبرى! فلِمَ يبدو الرجل وكأنه يتجهز لصبغ الهرم الأكبر بألوان زاهية، أو يواصل عمله لاكتشاف علاج ناجع لفيروس كورونا، أو يتعجل لإلقاء محاضرة لطلابه في قسم الاقتصاد السياسي!!

بيد أن لنظراته إجابات مغايرة عما يدور في أذهان بسطاء العقول، فهي تنبئ أن الرجل يقوم بوظيفته في التعاطي مع حال الفقر، كما يقوم الغني بوظيفته في التعاطي مع حال الثراء المتأطر حوله، وما الحالين سوى انعكاس لصفحة الحياة الممتدة منذ الأزل، ومن ظن أن الفقير قد استكان لفقره، ورضي بما يحسبه الناس حال هوان، وأنه لم ينهض بالحياة بدلا من أن تنهض هي به، لم يقرأ بصفحة الحياة علمَ الحياة بعد!

وهل هذا العابر بسلام قد عاين علمًا يهديه إلى تلك القناعة، ويضفي على روحه مسحة الرضا والسلام النفسي فلم يضجر بحاله، وعلم أن ما هو عليه من قدرٍ هو سائر على كل الناس بنفس الطريقة، ولكن بتفاعل مختلف، وأنه بالفعل ينهض بالحياة كما ينهض بها عالم الجينات في مختبره، ورجل الأعمال في تجارته، وجراح القلب في عيادته!

وما علم الحياة ذاك الذي يساوي بين كل الناس في الفهم والعمل، ويضع وضيعهم في ميزان النظر مع شريفهم؟ وهل تستوى مجريات الأمور بتلك النظرة، فيقنع ذو الفاقة المحتاج بحوجه وعوزه، فلا يهم لسعي، ولا يغريه مطلب! ويقنع ذو الثراء المستغني بعزه وماله، فلا يستميله زهدٌ، ولا تستهويه قناعة؟

أي نظرة تلك التي لا تجعل الناس في تمايز وتباين، وقد جُبل بعضهم على الهمة والنشاط، بينما جبل آخرون على الكسل وقلة الحيلة! فعَلت الهمة بأصحابها إلى هامات القمم، ودنت قلة الحيلة بندمائها إلى مهاد الأرض!

لا يعدو الأمر فيما نعاين سوى تنظيرات وفلسفات هائمة في جو السماء، كالشهب الثاقبة ما إن تقع على الارض تحترق وتزول، لكننا حين نتأمل بنظرة إيمانية تصل أعماق الفؤاد بأعماق الكون نجد اختلافًا كثيرا في المشاهدة والتأويل "**لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**"[٢٥]، يشاهد ادعاءات العقل المتلبس بزينة الحياة الدنيا، فيقوم مقام التمايز والتباين، ويشاهد في الوقت نفسه، رسوخ العلم الحياتي الذي ينفي وجه تلك التمايزات في عدالة القدر، ويحيلها إلى اختلافات السنن الكونية السائرة على كافة المخلوقات كي يظل ميزان الخلق على اعتداله وتوافقه، بلا تضخم ولا اعتلال!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لا يتجلى في نظرية علم الحياة أن الناس كلهم ميسوري الحال، وإلَّا لطمح الجميعُ بمادته أن يستغنى، وفي ذلك طغيان مادي يودي بديمومة الحياة ولا تنصلح معه أصلا! فمن أراد ان تنصلح له الحياة عليه أن ينصلح لها ابتداءً! يكون حيث وضعه القدر، من الرضا والإخلاص، بأن لا يضجر في أحوال الفقر أو أحوال الغني!

- وهل لأحوال الغني ضجر يا صاحبي؟

نعم، ضجر وأي ضجر، وشكر النعمة لهو الجهد الكبير، لو انقطع الغني في محراب العبادة متبتلًا لما استطاع شكر ما به من نعمة، فكيف واغراءات الدنيا تدعوه إلى مزيد منها، ودعاؤه الذي يثلج صدره موسوم عليه بأن ربِ لما أنزلت إلي من خيرٍ طامعٌ في مزيد!

تثبت لك تلك النظرية تباينا في يُسر الحال، لكنها تريك أن لا تباين في يسر البال، فبإمكان الجميع نيله، والتعاطي معه في كل أحوالهم، فالطبيب الحاذق الذي يصارع رغبة الشهرة ويغذيها ليل نهار ويستحلب لها من ضرع البؤساء ما يضخم أوجها، أتراه يتورع فتستعطفه حال بسيطٍ فيخفض له في أجر التشخيص، أو يمنُّ عليه به! قليلٌ ما هم! لكن نفس القليل قد جلب لنفسه راحة بال تغنيه عن تطلعات الشهرة، ورضي بما قُدر له، وتعاطى معه، ألا يستوى الأول مع فقير كالحٍ يضرب الأرض بأقدام الغضب فلا ترد

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سوى بألم ورهق! ويستوى الآخر مع فقير راض يقَبِل أعتاب البيت رضا وقرارا!

لابد لاستواء حال الحياة أن يرضى الجميع!

فعلمُ الحياة يفترض أن الرضا يجلب مزيدًا من السعادة، وأن العمل في سبيل العيش له نتائجه المضمرة في بطون الغيب، فذا يكلُّ ويتعب فيصيبه الثراء، وذا يكلُّ ويتعب فيصيبه الفقر، وليس الغنى عن طريق النصب والاحتيال واللعب بالبيض والأحجار من سبيل الغني المراد لنفسه، بل هو غواية شيطانية رافقت مطامع النفس التي لم يستطع المرءُ كبحَ جماحها، فسهلت له سبل الاغتناء المشبوه، وأقعدت صاحب النفس العفيفة الذي أدرك كنه الحياة ببسيط علم، فجازت به الأقدارُ مفاوز من الذلة والخنوع، فجعلته مرفوع الهام، سامق المقام، لا يلتفت لحقير من أمر دنياه يُضيّع عليه نعيم مقيم في آخرته!

ولذلك قال عمك عبد العظيم: أهذه حلال!

- ولمَ يُحمّل الرجل نفسه عناء السؤال عن مصدر المال، وقد جاءه على حين غفلة منه؟ ألا ترى يا سيدي أنه متكلف في الاستقصاء، غير مبالٍ بما وُهب له؟ فنحن نصادف أناسا كُثر في برنامجنا هذا، لا همَّ لديهم سوى الفوز بجائزته، دون السؤال عن مصدر الجائزة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ومنهم من يسجد لله شكرا، ومن يرفع يديه للسماء حمدا وشكرا، ومن يزرف دموع الفرح والابتهاج، ومنهم أيضا من يرفض أخذ الجائزة لعدم حاجته لها وأن هناك من هم أولى منه. غير أن هذا الرجل لم يقف لأعطية السماء موقف القناص المتربص، بل أخذه التحري مأخذًا جادا كاد أن ينصرف عنها، أي الجائزة، لو أوهمناه بأننا لا ندري مصدرها تحديدا!

لكن الذي يغري البال بالسؤال، هو كيف لهؤلاء أن يجهدوا أنفسهم في التحري والاستقصاء عن مصدر الرزق، لماذا لا يتصرفون كغيرهم ممن لا يلقون بالا: أمن حلال أم من حرام؟

أنى لهم أن يصلوا لدرجة العلم الذي يفرقون به بين حلال وحرام، وبين شبهة وسحت، وبين سؤال ملحف وسيف حياء!

وكيف انصرف وجه الرجل عن دائرة الابتسام التي كانت تعلوه عندما علم أنه فاز بهذا المال الكثير في نظره، فتحول وجهه إلى وجهٍ كالحٍ حزين!

ثمة تفسيرات أخرى يا سيدي ربما أعزوها إلى فطرة سليمة لم تخالجها مطامع الحياة بعد! وإلى ورعٍ تقي لم تزهو به شبهات الدنيا فيقبل عليها غير متحرٍ ولا قاص[٢٦]، فيبصر عن جنب[٢٧] ما قد خفى عن أعين اللاهين بشغلهم!

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لكن يُخشى على هذه الفطرة أن تغريها مباهج الدنيا، وتغزوها مطامعها، فتنجذب كفراش لاهٍ نحو أضواءٍ لامعة تحرق فيها معاني القناعة وأحوال الزهد، فتطمع غير آبهة بحلال وحرام!

غير أني عندما أقفو أثر علم الحياة الذي دبَّجتَ به أُحجيتك، لا أرى له مثولًا حيًا يضاهي العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية في منهجياتها ونظرياتها وتفسيراتها، لكن ربما يكمن بعضُه في حِكمِ الزمان المتراكمة، وتجاربه السارية منذ الأزل، فيضفي على نمط الحياة سياجًا محكمًا من ملكات الفطرة وحدود الشرائع، ما إن يحيد المضطرب عنه، فردًا أو جمعا، حتى يهلك أو يصاب بعطبٍ يعجزه عن حركة الحياة. أليس كذلك؟

- بلى، وأزيدك مما نتأول نتفًا أُخر تساير حكم الزمان وتجاربه؛ وتتلمس ضمائر النفس حاضرها وغائبها، إذ النفوس الناظرة بعين قِصرٍ، يعوضها التأمل ببصيرة حية وقادة، تستدعي مجريات الحياة وتنميقات الكون السائرة عيانا وتخيلا! وتُحيي نبرات الجمال فترسلها بيضًا بكرا، لا غَوْلٌ[٢٨] فيها يتهاوش والعقل، ولا تزييف سرعان ما ينكشف.

وإذ النفوس اللاهثة خلف طمع العين لا تحدها قناعة، ولا يردها قانون، ولا تردعها توقعات عقوبة، وهي قد أوجفت[٢٩] عليه من

www.alukah.net

خيلها وركابها في مضمار الاكتناز حله وحرامه! وقد نظرتْ بغشاوة إلى ركن الكون المادي، وغضت بصرها عن روحانياته ومضمراته.

وعندما تخالج روحانيات الإيمان قلاع النفوس المطمئنة ستمنحها نظرات مستجدة ترى بها الأمور على حقيقتها كما صورتها لها تجارب الزمن وحكمته، بعدما كانت قبل أن تتلبس بتلك الروحانيات، في غشاوة وعدم اهتداء.

وهو ما يعمله الإيمان عندما يخالط بشاشة النفوس، فيهديها إلى اطمئنان وتسليم ورغبة، وما مدية إبراهيم عليه السلام بتلك التي تشحذ فتتنزل بقدر السماء، فتفعل فعلها الطبيعي، وتجذ رقبة الفتى! لكن عوامل الإيمان جردتها من طبيعتها، فأحالتها كحد خشبٍ عريض، لا يؤثر ولا يجرح! فجاء الاطمئنان إلى قدر الله تعالى، والانقياد له، والرغبة فيما وعد.

وكم ممن "يبيت ضجيع الهم ما يطعم الكرى"[٣٠] تتراءى أمام ناظريه جبال الهم بجددها[٣١] وسموها، فينقلب حسير الحيلة لا تنفعه تجربة، ولا يهتدي بحكمة، لولا نداءات الإيمان التي لو تمهد لها قلبه لوجد تلك الجدد سهولا بها الخير الوفير.

على أن أمر الإيمان كونه منة ربانية يقذفه الحق عز وعلا في قلوب المخلصين من عباده، يلزمه إصلاح أداة الاستقبال حتى ينمو ويثمر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: "أعني على نفسك بكثرة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

السجود"[٣٢]، فهو من مدربات النفس وتليينها لتغدو مهيأة لقدر الله فيها، خيره وشره، ونابهة لأمر الحياة حولها، حله وحرامه.

فلا تتعجب من سؤال الرجل عن حل ذلك المال، ولا تحسبنه متكلف حيث لا مجال لاستقصاء، فهو مسئول أيضا، وسائلوه بين حسابين؛ حساب يوم حاضر، وحساب اليوم الآخر.

ومرجع الحساب الحاضر إلى ضمير المرء وضمير المجتمع، فإن تقاعس أحدهما عن دوره فما أقل أن يقوم الآخر بدور الرقيب الحسيب، إذ لو قعدا ولم يحاسباه عما جنته نفسه، لاختل ميزان المروءة بين الناس.

وأنى لضمير المرء أن يصحو من غفوته، ودنيا الناس حوله هرج وأي هرج!

أيهاجر بعيدا إلى كوخ الزهد، فيما الناس يهرعون لمزيد من الماديات، أم يركن إلى تلك الحياة مجاهدًا وصابرا، مبصرًا الحكمة في جوانبها، وروح الإيمان في جنباتها.

ومن تتأتى له فضيلة الصبر على حوادث الأيام، بأن يرى في فاقته عين الثراء، وفي ثرائه عين الفاقة، فقد نال من علم الحياة قدرًا معقولا يضع به كمامات الحبال على أفواه غنمه كي لا تميل إلى حقول الناس أثناء سيرها.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

والمتدبر من يميز ويتعايش! فإذا تُرك النهر لري البساتين، أغرقها وأهلكها، لكن الحكمة تقتضي شق الترع، ومد القنوات حتى يؤتي النهر ماءه بقدر.

وعلى غرار من يتاجر ويحاسب ويسجل كل معاملاته المالية، فإن المرء لابد أن توحي إليه نفسه بأن يحاسبها في كل وقت وحين، ليقف على مسارها الصحيح، وصدق القائل: لا يزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه.

ولا يتأتى واعظ النفس إلا بنداء الإيمان، الذي يشعل فيها كل مشاعل النور البهي، لتهتدي به إلى الصراط السوي، ويقومه كل حين.

إذا كان الطباع طباع سوء .. فلا أدب يفيد ولا أديب

ويلزم لضمير المرء محرك خارجي يقوي بواعثه الداخلية حتى يؤدي مهامه، ويظل حارسًا يقظا، وإلا دخل النقص والميل على الفرد والمجتمع.

ولله در من تمسك بأهداب ثوب زوجها قائلة له: يا فلان اتق الله فينا، ولا تطعمنا إلا حلال، فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وضمير المجتمع إذن هو من ينادى في النفوس البشرية أن الحكمة والشريعة هنالك، فدونكِ هما! آتيها بكل عزيمة وقوة، وأقبلي عليهما بلا تردد ولا انجذاب لمشتتات ومباهج.

ويالها من فاجعة كبرى عندما يتهاوى الضمير الجمعي فتتهاوى معه كل الضمائر بسبيل أو بآخر، وفي ذلك يشير الحديث النبوي: (إن أول ما دخل النقص على بني اسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده)[٣٣].

وهذا من التواصي الاجتماعي الذي هو بوابة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكبرى، وإن انقطعت تلك الشعيرة فلا مناص من انحدار أخلاقي يعم الجميع غنيهم وفقيرهم! وأنت خبير يا عزيزي بأن علل المجتمع لا تعالج بعاطفة الأفراد، حيث لابد من يدٍ طولى تشخص وتعالج، ويصطف لأمرها الجميع وفق منهج معتدل قويم! فالحلال بيّن، وكذلك الحرام، وذو العينين يفرق بينهما دون مواربة! لكن الإشكال في مشتبهاتهما، وهو ما سألتَ عنه، إذ كيف لبسيط الحال أن يصل لدرجة العلم الذي يفرق به بين حلال وحرام! أو بالأحرى يعرف به المشتبه عليه، فيتجنبه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وهنا يظهر دور تلك اليد الطولى التي تنظم حركة الناس في سفينة الحياة، ولا تدعهم لما يفكرون به من خروقات وأذى لأن، هذه اليد، إن تركتهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذت على أيديهم نجوا ونجوا جميعا.

ولولا روح الشريعة السائدة في ضمائر الأنفس ذات الفطرة السوية، لتحققت خشيتك أن تغري مباهج الدنيا تلك الفطر، فتنجذب كفراش لاهٍ نحو أضواء تحرق فيها معاني القناعة وأحوال الزهد، فتطمع غير آبهة بحلال وحرام!

والأدهى من ذلك أن يصور لها أبالسةُ الفقر أن ما يرتضون به من قليلٍ هو مقابل جهدهم الضئيل في معترك الحياة، وأنهم لا قِبل لهم بمستويات ثراء وتطلعات غنى. وأن الاقدار إذْ تصرف عنهم مضارها من فقد ولد أو إصابة بمرض، فقد فرضت عليهم ضريبة الستر والمعافاة بمزيد من القهر والفقر.

وعندما تجتمع مقامات الضمائر، فردية وجماعية، ومقامات الشريعة، ستجد دنيا ممتلكة بيد الجميع، لا طمع يزينها، ولا زهد يحقرها. ولك في تجربة الزمان، إن استحضرته من قديم وحديث، ما تستبين به هداك في سبيل الحياة المختلط، متفهما لسان حال العابر بسلام في خضم الحياة .. يأيها الناس.. اتركوني وشأني..

أمرُ بسلام.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التعليقات:

---

(١) تمخر أي تشق، وعباب البحر: أمواجه.

(٢) حدة البصر أي وضوح الرؤية.

(٣) اللأواء: ضيق المعيشة.

(٤) تلبَّد الصُّوفُ ونحوُه: التبد؛ تداخل ولزِق بعضُه في بعض.

(٥) أتون الصراع: شدته وضراوته، والأتون نار متأججة، أو موقد نار.

(٦) قُدر الرزق على فلان أي ضيقه الله عليه ومنه قوله تعالى: "فمن قُدر عليه رزقه" أي ضيق عليه.

(٧) سورة إبراهيم، الآية ٧.

(٨) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥م، الجزء السابع، ص٢٨٣.

(٩) تلفع الشخص بالثوب: تغطي به.

(١٠) الكد: التعب.

(١١) فترت حركاته: سكنت بعد حدة وشدة، يقال: فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفئ الشعلة.

(١٢) أبعد النجعة أي رعى في غير المكان المناسب للرعي. وهو مثلٌ يضرب لمن ابتعد في كلامه عن المراد.

(١٣) دحس بين القوم: أفسد بينهم. ودعس الشيء: داسه دوسا شديدا.

(١٤) مصائب.

(١٥) تُؤدة: رزانة وتأنٍ وتمهل.

(١٦) سورة الرعد، الآية ٤.

(١٧) طفح جلدي مثل الخراج.

(١٨) سورة طه، الآية ١٢١.

(١٩) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

(٢٠) يشتري.

(٢١) الزنبيل: من معانيه، قفة مصنوعة من سعف النخل .

(٢٢) الشره: النهم وعدم الشبع .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٢٣) بُنية تصغير ابنة، وبنيات الروح أي الارواح الصغيرة البريئة.

(٢٤) معتر: مسكين فقير، يتعرض للمسألة ولا يسأل .

(٢٥) سورة ق، الآية ٣٧ .

(٢٦) متتبع لأثر ما، كما في الآية: وقالت لأخته قصيه.

(٢٧) أي عن بُعد .

(٢٨) الغول: الصداع كما في الآية "لا فيها غول" أي صداع. وقال أبو عبيدة: الغول أن تغتال عقولَهم.

(٢٩) أوجفتم: أسرعتم السير، من الإيجاف وهو السرعة. والوجيف: نوع من السرعة. قال تعالى:" فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب".

(٣٠) يقول قيس بن الملوح: يبيت ضجيع الهم ما يطعم الكرى .. ينادي، إلهي قد لاقيت الدواهيا

(٣١) الجُدَد: هي العلامات والخطوط الظاهرة تكون في الجبال بيض وحمر وسود، يقول تعالى: "ومن الجبال جددٌ بيض وحمر".

(٣٢) صحيح مسلم.

(٣٣) سنن أبي داود، وضعفه الألباني.

شبكة الألوكة - قسم الكتب